في مقياسنا إذ لا نفهمه، ولكنه ليس لغواً بينها فإنه محادثة وذكر لا نفهمها، فاللاغي منا - على فهمه - هو ألغى من العصافير على حيونتها.

ولغو الفعل والكلام قد يكون لإجماله كأن كان مفرداً دون جملة، كمفردات الكلام، ولذلك سميت لغة، وقد يكون في جملته إجمالاً لأنه لغة خلاف ما نعرفها من لغة كلغو العصافير أماذا من لغات حيوانية أم إنسانية لا نعرفها، وثالثة هو لغو بقول مطلق، لا يعني أيّ معنى صالح في أية لغة، ثم هو يلحد في لغة صالحة كاللغو في القرآن.

فمن اللغو في القرآن تحريفه بزيادة أو نقصان، فتجريفه إلى منجرفات الكتب التي بين يديه، إلى شفا جرف هار منهار، ولكنهم عن بكرة أبيهم حاولوا ولم يفعلوا ولن... حيث القرآن في ضمان دائب من الرحمن الرحيم.

ومنه نقضة بنقصة لغوياً أو معنوياً أم أي خلاف للحق أو اختلاف ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[1].

ومن اللغو فيه إلهاء الناس عن السماع له بقصص خرافية أماهيه، ملهية عن سماع القرآن لمّا يقرأ، واللغو بالهرج والصياح والنياح، وبالرجزات والسجعات، وقد فعلوا كل ذلك وافتعلوا ولكنها ذهبت كالتي قبلها إدراج الرياح، وغلب القرآن وغُلب هنالك المبطلون!... ثم لا جواب عن تهددهم هذا إلّا بما يلقون - جزاء ما يُلغِون - يوم القيامة، حيث الجواب هنا تبابهم عما كانوا يهوون:

﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾:

قد يعني ذوق العذاب أولاً وجاه وقبل الجزاء، أسوأ الذي كانوا

(١) سورة النساء، الآية: ٨٢.

يعملون، ذوقه في الدنيا قليلاً، ثم في البرزخ وسطاً، ومن ثم الجزاء الأوفى يوم الجزاء، وسرعان ما شهدنا حنقهم يوم الدنيا أن رجعوا عن لغوهم في هذا القرآن خاسرين مهانين، ومن ثم البرزخ والقيامة الكبرى فإن فيها نفس الجزاء بعد ذوقه.

و﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ تعم الكبراء الأتباع، و﴿أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ هو اللغو في القرآن وأضرابه من بالغ الكفر والتكذيب بآيات الله، والجزاء هنا هو الأسوأ نفسه، إذ ليس جزاءً بأسوأ، مما يتهدَّدهم أن لغوهم في القرآن يبرز يوم القيامة بملكوته جزاءً فـ ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1] فهي من الآيات القائلة إن الجزاء هو العمل والعمل هو الجزاء، فليس هنالك انتقام وانتصار، بل هو ظهور ما كان خفياً ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[2].

﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

﴿ذَٰلِكَ﴾ البعيد المدى ﴿جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ﴾ وهو ﴿ٱلنَّارُ﴾ ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ قدر ما أخلدوا إلى عداء الله ﴿جَزَآءً﴾ وفاقاً بما كانوا يكسبون.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾:

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ هنا هم التابعون و﴿ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا﴾ هم القرناء المتبوعون، يطلب الأولون ربهم أن يُريهم الآخرين ليذلوهم ويسفلوهم.

وهل ﴿ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ هما شخصان اثنان، إبليس الجن

(١) سورة الطور، الآية: ١٦.
(٢) سورة ق، الآية: ٢٢.

وقابيل الإنس[١]؟ وليس قابيل مضلاً لكلِّ الكافرين مهما كان بادئ الإضلال من الإنس، فهنالك في تاريخ الإنسان من هو أشر منه وأطغى! وليس المضل من الجن هو شخص إبليس مهما كان يرأس المضلين! إذاً فهما النموذجان الأولان للإضلال ومن ثم الآخرون في كل زمان ومكان، و«اللذان» تثنية الجمع لا المفرد.

وإنه تطلّب بخنقٍ عنيف تحرّقاً على الانتقام، أترى أنهم المجابون في طلبتهم هذه؟ علّه نعم لأن المضلِّل هو أسفل من المضلَّل وقد ظلمه فليكن تحت قدمه، وقد يجاوبه اللّاجواب!.. وعلّه لا إذ لا إجابة لدعاء الكافر وهو في النار ﴿وَمَا دُعَاءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾[٢]! وليس كل مضلِّل أسفل من مضلَّله ولا أظلم منه وأطغى!: ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾[٣] وعلّهم حيث أضلوا غيرهم كما ضلوا بغيرهم فهم ومضللوهم في الضِّعف سواء!

وقد يكون الانظلام أظلم من الظلم! ثم الله هو الذي يجعل الأسفل من الأسفلين والسافل من السافلين عدلاً وجزاءً وفاقاً، أفيُطلب بعدله يوم عدله؟! وفي جعلهما تحت أقدامهم حظوة ونعيم للتابعين وليست النار دار النعيم!

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ

(١) الدر المنثور ٥: ٣٦٣ - أخرج عبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه وابن عساكر عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه سئل عن قوله: ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا..﴾ [فُصّلَت: ٢٩] قال: هو ابن آدم الذي قتل أخاه وإبليس.

(٢) سورة الرعد، الآية: ١٤.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٣٨.

ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ﴿٣٢﴾﴾[١]:

آية الاستقامة في فصّلت فَصّلت ثانيتها المجملة في الأحقاف، ثم ليست سواهما في سائر القرآن إلّا ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾[٢] ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ﴾[٣] ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾[٤].

في الأحقاف تبشر بسلب الخوف والحزن وإثبات الجنة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾[٥] وهنا يحمل الملائكة تنزلاً عليهم هذه البشارة بولاية لهم دائبة في الدنيا والآخرة، وما ألذّها بشارة وحياً من الله ثم إلهاماً يحمله ملائكة الله!

وترى ما هي الحاجة إلى بشارة الملائكة وولايتهم بعد الله في الدنيا والآخرة؟ علّها لتكملة المقابلة بينهم وبين الكافرين، فأولاء لهم قرناء من الشياطين وهم أولياؤهم بعد الشيطان الأول، وهؤلاء لهم قرناء من الملائكة يبشرونهم وهم أولياء لهم بعد الله وبأمره في الدنيا والآخرة، تشريفاً لهم وليس بحساب الحاجة.

«. . . وقد قلتم ربنا الله فاستقيموا على كتابه وعلى منهاج أمره وعلى الطريقة الصالحة من عبادته، ثم لا تمرقوا منها، ولا تبتدعوا فيها، ولا تخالفوا عنها، فإن أهل المروق منقطع بهم يوم القيامة»[٦] و«قد قالها ناسٌ

(١) فصلنا بحث الاستقامة في الفرقان ٢٦: فراجع ولا نعيده هنا.
(٢) سورة التكوير، الآية: ٢٨.
(٣) سورة الشورى، الآية: ١٥.
(٤) سورة فصلت، الآية: ٦.
(٥) سورة الأحقاف، الآيتان: ١٣، ١٤.
(٦) في نهج البلاغة عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وإني متكلم بعدة الله وحجته قال الله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ. . .﴾ [فُصّلَت: ٣٠] وقد قلتم. .

من الناس ثم كفر أكثرهم فمن قالها حتى يموت فهو ممن استقام عليها»[١]

ومادة الاستقامة تختصر بل وتحتصر في «فرائض الله»[٢] أصلية كولاية الله والرسول وخلفائه عليهم السلام [٣] وحقيقة المعاد، وفرعية كسائر الفروع المفروضة على العباد.

فالاستقامة في قول ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ هي استقامة في العمق بكافة متطلباتها، واستقامة في طول الحياة وعرضها في معارضها كلها، استقامة على الطريقة الصالحة إليه علماً وإيماناً وعملاً صالحاً، والاستقامة عليها شعوراً في الضمير وسلوكاً في الحياة وصبراً على تكاليفها، والأشلاء والدماء في سبيلها، والحرمانات وترك الشهوات والنفسيات في جادتها بصورة قاطعة جادّة.

أترى المستقيمين - كلهم - تتنزل عليهم الملائكة ببشراهم؟ فمن رأى منهم الملائكة وسمعهم؟! اللهم إلّا من حذا حذو الرسول صلى الله عليه وآله منهم ونحى نحوه، وهم الأئمة الاثني عشر عليهم السلام إذ كانوا يرونهم ويسمعونهم[٤]،

(١) الدر المنثور ٥: ٢٦٣ - أخرج الترمذي والنسائي والبزاز وأبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم وابن عدي وابن مردويه قال: قرأ علينا رسول الله صلى الله عليه وآله هذه الآية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾ [فُصّلَت: ٣٠] قال: قد قالها..

(٢) الدر المنثور ٥: ٢٦٣ - أخرج ابن مردويه من طريق الثوري عن بعض أصحابه عن النبي صلى الله عليه وآله في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾ قال: على فرائض الله.

(٣) نور الثقلين ٤: ٥٤٧ ح ٤٣ في تفسير أهل البيت عليهم السلام عن أبي بصير قال قلت لأبي جعفر عليه السلام قول الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾ قال: هي واللّه ما أنتم عليه.

(٤) نور الثقلين ٤: ٥٤٥ ح ٣٦ في بصائر الدرجات بسند قال دخل حمران بن أعين على أبي جعفر عليه السلام فقال له: جعلت فداك يبلغنا أن الملائكة تنزل عليكم؟ قال: إي والله لتنزل علينا فتطأ فرشنا أما تقرأ كتاب الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ...﴾؟ وفي ح ٤٤ عن الخرائج والجرائح بإسناده إلى أبي عبد الله عليه السلام في الآية فقال: أما والله لربما وسدناهم الوسائد في منزلنا، قيل له: الملائكة تظهر لكم؟ فقال: هم ألطف بصبياننا منا بهم وضرب بيده إلى سور في البيت فقال: واللّه لطالما اتكأت عليها الملائكة وربما التقطنا من زغبها.

ولكنما الآية تعم المستقيمين كلهم، أو أن بشرى الملائكة بوجه عام هي عند موتهم، مهما بشروا الخصوص منهم قبل موتهم؟[١] والظاهر من ﴿تَتَنَزَّلُ﴾ هو تنزلهم عليهم منذ استقاموا ليُطمئنوهم على استقامتهم فيزدادوا قوامة على قوامة، ثم ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ لا تفيدهم بشارة إلّا أن تكون قولة في الحياة الدنيا كما ﴿وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾. لتكون زادهم في مسيرهم الشاق الطويل، فلا يخافوا مستقبلهم الأخرى، ولا يحزنوا على ما فاتهم في الأولى! أم أن بشارة الملائكة درجات بمختلف التنزلات كما استقامة المؤمنين درجات، فقد يرونهم ويسمعونهم كالرعيل الأعلى وهم الأئمة

(١) نور الثقلين ٤: ٥٤٧ ح ٤٥ القمي في الآية ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ قال: على ولاية أمير المؤمنين عليه السلام ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ قال: عند الموت ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [فصلت: ٣٠-٣١] قال: كنا نحرسكم من الشياطين ﴿وَفِى ٱلْأَخِرَةِ﴾ أي: عند الموت.. وفي تفسير الإمام الحسن العسكري عليه السلام عند قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦] من البقرة قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لا يزال المؤمن خائفاً من سوء العاقبة ولا يتيقن الوصول إلى رضوان الله حتى يكون وقت نزع روحه وظهور ملك الموت له وذلك أن ملك الموت يرد على المؤمن وهو في شدة علته وعظيم ضيق صدره بما يخلفه من أمواله وبما هو عليه من اضطراب أحواله من معامليه وعياله قد بقيت في نفسه حسراتها واقتطع دون أمانيه فلم ينلها فيقول له ملك الموت: ما لك تجرع غصصك؟ قال: لاضطراب أحوالي واقتطاعك لي دون آمالي، فيقول له ملك الموت: وهل يحزن عاقل من فقد درهم زائف واعتياض ألف ألف ضعف الدنيا؟ فيقول: لا - فيقول ملك الموت: فانظر فوقك فينظر فيرى درجات الجنان وقصورها التي يقصر دونها الأماني فيقول ملك الموت: تلك منازلك ونعمك وأموالك وأهلك وعيالك ومن كان من أهلك هاهنا وذريتك صالحاً فهم هنالك معك أفترضى بهم بدلاً مما هاهنا فيقول: بلى واللّه ثم يقول: انظر فينظر فيرى محمداً صلى الله عليه وآله وعلياً عليه السلام والطيبين من آلهما في أعلى عليين فيقول: أو تراهم هؤلاء ساداتك وأئمتك هم هناك جلاسك وأناسك أفما ترضى بهم بدلاً من تفارق هنا؟ فيقول. بلى وربي فذلك ما قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ [فُصّلَت: ٣٠] فما إمامكم من الأحوال فقد كفيتموها ولا تحزنوا على ما تخلفونه من الذراري والعيال فهذا الذي شاهدتموه في الجنان بدل منهم وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون وهذه منازلكم وهؤلاء ساداتكم أناسكم وجلاسكم».

الهداة، أو يسمعونهم ولا يرونهم كمن حذا حذوهم من المخلصين، أو يُلهمون دون سماع ورؤية كالمؤمنين المتوسطين، فمهما كان تنزلهم عند موتهم برؤية وسماع، فلكلّ في حياته منزل من الملائكة حسب قابلياته، فليس مثل ابن عباس - على مكانته - ممن يتنزل عليهم الملائكة نزولهم على العترة الطاهرة[1] مهما شملته البشارة الملائكية بين من استقاموا، وما أظنه تشمله وقد تنحى عن نصرة الإمام المعصوم سيد الشهداء عليه آلاف التحية والثناء.

ومهما كان أجلى المصاديق لمُتَنَزَّل الملائكة مكاناً هم الأئمة وزماناً هو الموت، ولكنه لا يمنع شموله كل المستقيمين منذ استقاموا حتى الموت ويوم النشور، أياماً ثلاثة يعيشونها بهذه البشارة المشرفة، وفي الحق ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ إذا قيل بحق يحمل كل ما يتوجب على العبد تجاه الله، إذ تشمل التربيات الإلهية كلها دونما استثناء، ولا يمكن الاستقامة في ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ اللائقة لهذه البشارة إلّا أن تعني «قالوا» قولاً نابعاً عن علم، نابغاً بإيمان، فالقولة الخالية عنها خاوية لا تحمل الاستقامة فيها إلّا خواءً على خواء!

ثم الاستقامة تحمل بعد قوامة العلم والإيمان استدامة العمل الصالح الذي يتبعهما، فالقول ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ يتبنّى مثلث العلم والإيمان والعمل الصالح بمراتبها.

(١) المصدر ٥٤٦ ح ٣٨ أصول الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: بينا أبي جالس وعنده نفر إذ استضحك حتى اغرورقت عيناه دموعاً ثم قال: هل تدرون ما أضحكني؟ قال: فقالوا: لا - قال: زعم ابن عباس أنه من الذين قالوا ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ فقلت له: هل رأيت الملائكة يا بن عباس تخبرك بولايتها لك في الدنيا والآخرة من الأمن من الخوف والحزن؟ قال فقال: إن الله تبارك وتعالى يقول ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحُجرَات: ١٠] وقد دخل في هذا جميع الأمة فاستضحكت ثم قلت: صدقت يا بن عباس... أقول: لعل تصديقه عليه السلام قول ابن عباس تصديق لأصل دخوله في الآية دون رؤية الملائكة وسماعهم التي هي الدرجة العليا من تنزلهم.

وهذه البشارة تحمل كلا السلب والإيجاب جزاءً من ربك عطاءً حساباً عن ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ فإنها ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ سلباً بسلب وإيجاباً بإيجاب.

فسلبها ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾ خوفاً عما يأتي وحزناً على ما أتى، وإيجابها ﴿وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ...﴾! ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾[١] هي زادهم من بدئهم إلى معادهم ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾[٢] ﴿بَلَىٰ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾[٣] ﴿وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾[٤]!

﴿نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ...﴾.

الولاية هنا المحبة والنصرة المساندة عل ضوء ولاية الله، فللملائكة تأثيرات جلية وخفية في الأرواح البشرية المستقيمة على ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ بإلهامات ومكاشفات في مختلف المقامات والمكانات حسب القابليات والدرجات، وكما للشياطين القرناء للكافرين إلهامات لأوليائهم حسب الدركات ظلمات بعضها فوق بعض.

هذه الولاية الملائكية وتلك الشيطانية في الحياة الدنيا سوف تبقى في الآخرة أظهر وأقوى، حيث التعلقات الحائلة هناك زائلة، فالولاية في بروزها وتأثيرها تظل دون غطاء ووطاء نائلة.

﴿...فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾.

لكم فيها ما تشتهون ولكم ما تطلبون، جمعاً بين ما تسرون من طلباتكم وما تعلنون.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٨.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٣٨.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١١٢.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٧٠.

﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ فكما قدمتم لله في حياتكم الدنيا مرضاة الرب كلها، كذلك الغفور الرحيم يجيب إلى طلباتكم كما تشتهون وتدعون في الحياة الأخرى.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾:

علّ الواو قبل «عمل وقال» للحال فتعني حال أنه عمل صالحاً وقال إنني من المسلمين، فمن أحسن قولاً منه؟ فـ ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ هم القائلون ﴿إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ ولمّا ﴿ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ فهم ممن ﴿عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ فلما استكملوا في تبنّي حق الإسلام لأنفسهم، من ثمّ لهم وعليهم أن يكونوا ﴿مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فهو الأحسن قولاً ممن سواه، ولا أحسن منه قولاً فيمن سواه.

ووجه آخر أن الواوين للعطف، فـ «عمل صالحاً» في سبيل الدعوة إلى الله وكما أصلح به نفسه ﴿وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ الحقيقيين جهاراً دون تقية ولا ستار، فإسلامه جاهر قولاً وعملاً فدعوة إلى اللّه، وهذه هي الدعوة الحقة التي ما لها من فواق.

والمعنيان علّهما معنيّان ويقتضيهما أدب اللفظ وعلو المعنى، فهناك عمل صالح وإنني من المسلمين قبل الدعوة وهما من شروط الدعوة، ثم عمل صالح وقول في طريق الدعوة وهما زاد الدعوة في سبيلها الشاق الطويل، وقد زُوِّد الرسول محمد ﷺ أفضل من غيره من الدعاة إلى الله وأحسن، بقول وعمل صالح قبل الدعوة ومنذ ترعرع، ومع الدعوة حتى لاقى ربه، فمن أحسن قولاً منه.

١٤٩ إن كلمة الحق حينئذٍ أحسن كلمة تقال، لكنها مع العمل الصالح الذي يصدقها ويصعدها، ومع الاستسلام الذي تتوارى معه الذات والذاتيات

والإنيات وجب الظهور وكل شيء، فتصبح الدعوة خالصة لله، ليس فيها للداعية شأن إلّا الدعوة.

والنهوض بتلك الدعوة البارعة في مواجهات التواءات النفوس البشرية واستكباراتها، إنه أمر عظيم، وأعظم منه الداعية الذي لا يهدف في دعوته إلّا الله، تناسياً لنفسه ورغباته وكل شيء إلّا الله.

إنه يعارض السيئات ليزيلها، ولا تستوي الحسنات ولا السيئات، فقد يقتضي صالح الدعوة أن يدفع بالتي هي أحسن السيئة دون مجابهة بمثل كما يفعلها غير الصالحين:

﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾[١]

ترى ما هو موقع «ولا» بين الحسنة والسيئة؟ فهل إنها مزيدة لتأكيد النفي حيث الاستواء لا يكتفي بمفرد، ولها نظائر ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾[٢] ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾[٣].

أم أنها للنفي، نفياً لاستواء جنس الحسنة بأفرادها وجنس السيئة بأفرادها؟ فهو بأحرى نفياً للاستواء بين قبيل الحسنة والسيئة! ولو أن تأكيد النفي يبرر الزيادة في «لا» فلماذا لم تزد فيما هو أولى: ﴿لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ﴾[٤] ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾[٥] ولا سيما أن ﴿وَلَا

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٩٦.
(٢) سورة فاطر، الآية: ٢٠.
(٣) سورة فاطر، الآية: ٢٢.
(٤) سورة الحشر، الآية: ٢٠.
(٥) سورة المائدة، الآية: ١٠٠.

﴿ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾ كمثال واقعة بين الممثل أو مثال أولى ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾[١] وهو أحرى بتأكيد النفي، وعلّ الاستواء المنفي في ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾[٢] أيضاً هو بين الأحياء أنفسهم، وبين الأموات، ثم النفي بين الأحياء والأموات، وبين الحسنة والسيئة هو نفي الاستواء بينهما بطريق أولى.

أم أنها لتأكيد النفي بين الحسنة والسيئة وللنفي بين مصاديق الحسنة ومصاديق السيئة؟

قولة الزيادة زيادة من القول، والنفي ثابت إذ تقتضيه «لا» والجمع أولى فإنه أجمع وأحلى! فإذ لا تستوي الحسنة في أفرادها، ولا السيئة في أفرادها، فلا ينحصر دفع السيئة بسيئة أخرى، فقد تكون سيئة تدفع بحسنة فـ ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾[٣] وقد تكون سيئته لا تدفع إلّا بسيئة فلا مجال إذاً لدفعها بحسنة، فالمعاند المكذب بآيات الله، الذي لا يرجى هداه، ولا تصُد هواه، لا تدفع سيئته بحسنة، بل ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾﴾[٤].

فالعفو في موضع الإصلاح دفع للسيئة بالحسنة ودرءٌ لها ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾[٥] والعفو فيما لا يُصلح بل ويفسد هو سيئة بدل كونها حسنة، فـ ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ﴾ في مواردها، وكذلك السيئة التي تدفع بحسنة، والتي تدرأ بأية حسنة «لا تستوي السيئة» كذلك في مواردها، فـ ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ

(١) سورة فاطر، الآية: ١٩.
(٢) سورة فاطر، الآية: ٢٢.
(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٩٦.
(٤) سورة الشورى، الآيتان: ٤٠، ٤١.
(٥) سورة الرعد، الآية: ٢٢.

سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[١] لا تعم مواردها، لاختلاف السيئات، ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾[٢] لا تعم لاختلاف الحسنات، والسيئة التي تدفع بحسنة خير من حسنة لا تدفع سيئة بل وتزيدها، فلأنه ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ فـ ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ما أمكن الدفع، وإلّا فـ ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾!

ثم الدفع بالتي هي أحسن ليس إلّا عن موضع القدرة، فلئن أحس العدو موضع الضعف اخترم ولم يحترم، ونفس الدفع يلمح إلى شريطة القدرة، حيث العاجز لا يدفع، لا بالتي هي أسوأ ولا الأحسن، فإنه ضعيف على أية حال، ﴿ادْفَعْ ... فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾.

هنالك دفع للسيئة وهو واقع بالتي هي أحسن وإن بقي العدو على عدائه كامناً، وليس «إنه ولي حميم» إنما ﴿كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ يندفع عن ظاهر عدائه وإيذائه كولي حميم، وقد يدفعه إلى مرحلة ﴿وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ فالإصلاح درجات كما الإفساد دركات، إذا دفعت بالأحسن، بالفعل ينقلب الهياج والغضب إلى وداعة وسكينة، والتّبجح إلى حياءٍ ولينة، وأنت ما دفعت إلّا بكلمة طيبة، ونبرة هادئة، وبسمة حانية أمّاهيه من التي هي أحسن حسب ما يقتضيه علاج الواقعة، طريقة مثلي وحكمة علياً تدفع واقعة السوء بها، وقليل هؤلاء الأعداء الذين يظلون على عدائهم وجاه تلكم الواجهة الوجيهة والخلق العظيم، اللّهم إلا عداءً عريقاً عميقاً ممن لا يرجى ولايته وحمته على أية حال، والهدف الرئيسي من التي هي أحسن دفع السيئة، وإن بقيت العداء في باطنها، ثم إزالة العداء، ثم اجتلاب الحمة، وأما إذا دفعت سيئة بسيئة أم زاد يزداد عدوك هياجاً، فيخلع حياءه نهائياً إذ يتفلت زمامه فأخذته العزة بالإثم.

(١) سورة الشورى، الآية: ٤٠.
(٢) سورة الشورى، الآية: ٤٠.

إن تلك السماحة مع القدرة على انحصارها في حالات الإصلاح وهي في الأغلبية الساحقة شخصية، إنها بحاجة إلى تصبُّر ومعرفة وعطوفة ودراية زائدة وتلقية إلهية:

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾:

صبرٌ من الله وحظٌّ عظيم من الله هما جناحان لذلك الدفع العظيم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾[١] ومن أعظمهم الرسول الأعظم ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾[٢] ولقد لقَّاه الله والمحمديين من آله الطاهرين الصبر العظيم والحظ العظيم، فكانوا يواجهون الأعداء بكل حنان ما أمكن ومن ثم غضب الحليم.

هنا ﴿حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ في تنكير التعظيم بعد ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ توحي بعظمةٍ ذات أبعاد: صبر وحظ ذي بعدين من العظمة، وما أعظمه العظيم في ميزان الله، وما أكرمه من يُلَقَّاه من عند الله، وفي الحق هم القلة القليلة من سابقين وأصحاب اليمين: ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾[٣].

ومن أعظم الحظ العظيم الخلق العظيم ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٤] وقد يتبناه علم عظيم ومعرفة واسعة وسماحة فاسحة وتصبُّر عظيم.

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾:

﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ

(١) سورة القصص، الآية: ٨٠.
(٢) سورة النمل، الآية: ٦.
(٣) سورة النساء، الآية: ٦٩.
(٤) سورة القلم، الآية: ٤.

﴿لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾[١] والنزغ هو الدخول في أمر لإفساده، فإذا قلت التي هي أحسن دفعاً للسيئة بالحسنى لم يكن هناك مدخلٌ لشيطان ليجعل السوء سوأى أم يبقي على سوء، ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ حين يفلت منك فالت، وهكذا يكون دور الشيطان أن يدخل في الأمور لإفسادها، فهنالك ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ من نزغه ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ استعاذتك ونداؤك ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ حاجتك واستدعاؤك.

الغضب قد ينزغ فلا يتصبّر صاحبه على إساءَة، أماذا من نَزغات في مختلف الحالات مهما كنت صبوراً حليماً إلّا من عصمه الله، فإذا نزغك نزغ ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ وصيغة الاستعاذة هنا «أستعيذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم».

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾:

﴿لَا تَسْجُدُوا۟ . . .﴾ نهي مؤكد انحصاراً للمسجود له في الله وانحساراً عما سواه، سواء أكان المسجود له هو الشمس والقمر كما هنا، والخطاب موجه إلى الساجدين لهما، أم سواهما من أصنام وطواغيت أم أولياء وملائكة كرام، ولأن السجود لغير الله تسوية له بالله وهو ضلال مبين، و﴿ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ إشارة إلى سبب المنع وسعة الممنوع بدليل الجمع ﴿خَلَقَهُنَّ﴾ الشمس والقمر وسواهما من خليقته.

ثم و﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ تعليق على عبادتهن، فالعابد لله ليس ليعبد خلق الله، ولا سيما ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ . . .﴾ ترمي إلى التوحيد، والسجود لغير الله ينافي التوحيد.

(١) سورة الإسراء، الآية: ٥٣.

وكضابطة توحيدية كلُّ تسوية لغير الله بالله إشراك بالله، في معرفة وعقيدة، أم فعلة وقولة، أم أية حالة على أية حال، مهما اختلفت دركات ذلك الإشراك.

والسجدة هي صورة عبادة، فإن كانت لغير الله بنية العبادة وسيرتها فمن أسفل دركات الإشراك بالله، وإن كانت صورة دون سيرة وهي أحيانية وإنما احتراماً للمسجود له، فمن أدنى دركاته، وإن كانت مستمرة فعوان بين ذلك، وذلك الثالوث على اختلاف دركاته مشترك في الشرك!

﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾﴾:

ليس الكون قاحلاً عمن يسبحون له وله يسجدون، ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عن عبادته وسجوده، إلى سجود الشمس والقمر وهما آيتان من آياته، إلحاداً فيها بإفراط ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ عندية القرب مكانة تربوية لا مكاناً، من ملائكة وإنس وجان، سابقين أو مقربين، فإنهم عند ربك، لا «الله» فليس عند ذاته أحد، ولا «رَبِّ الْعالَمِينَ» حيث الربوبية العامة ليست بذلك الزلفى، بل ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ بتلك الربوبية القمة التي أنت فيها بأعلى قمة ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ﴾ لا سواه ﴿بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ في كل وقت لحدٍّ أصبحت ذواتهم وصفاتهم وأفعالهم وخطراتهم تسبيحاً لله ﴿وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾: لا يملّون من هذه الكثرة الكثيرة، وإنما يسأمون لو يغفلون.

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾:

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ﴾ قدرته على إحياء الموتى مسرح الأرض الخاشعة الخامدة القاحلة حيث تحيى بإنزال الماء فتربو وتهتز، فمن ذا الذي يُربيها ١٥٥

وَيهزُّها بعد خشوعها إلّا الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡىِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓ﴾ وبأحرى ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٖ قَدِيرٌ﴾.

فإذا كان إحياء الأرض لانتفاع الأحياء فضلاً من ربك عطاءً حساباً، فإن في إحياء إنسان الأرض لانتفاعه بما قدم، وجزاءه بما ظُلم أم ظَلم، إن في ذلك لعدلاً بعد فضل، فواقع الحياة المكرورة المتتابعة للأرض الخاشعة يوقّع بأحرى واقع الواقعة، ﴿لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾[1]!

وكما الله ينزِّل على خاشعة الأرض نازلةً من ماء السماء إحياءً لها للأحياء، كذلك الله ينزل على خاشعة الأبدان نازلة الأرواح من سماء الرأفة والعدالة وهو أحق وأحرى.

(١) سورة الواقعة، الآيتان: ٢، ٣.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم
مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ﴿٤١﴾ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ
مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا
مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ ﴿٤٣﴾
وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَأَعۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ
لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ
وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا
مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ
بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴿٤٥﴾ مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ
أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخۡرُجُ
مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَيَوۡمَ
يُنَادِيهِمۡ أَيۡنَ شُرَكَآءِي قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٖ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنۡهُم
مَّا كَانُواْ يَدۡعُونَ مِن قَبۡلُۖ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ
مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ
مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن
رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ
وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا

﴿بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾:

اللَّحْد حفرة مائلة عن الوسط، فالإلحاد هو الإمالة عن الوسط الحق إلى حفرة إفراط أو تفريط، و﴿ءَايَٰتِنَا﴾ تعم التكوينية كسائر الآيات الدالات على الله بما فيها آيات النبوات وحملتها، والتدوينية كسائر كتابات الوحي بما فيها القرآن، فالإلحاد في تكوينية الآيات السائرة هو إمالتها عن كونها آيات كأنها لا تدل على الله تفريطاً فيها، أم إشراكها بالله كأنها له أنداد إفراطاً في شأنها، وفي التكوينية الخاصة كما الإفراط في أسماء الله تحويراً لها وتحريفاً عن معانيها المعنية، أم اختلاقاً لأسماء لم يسم بها نفسه ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[1] والتفريط في ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾[2] والإفراط فيه أنه منه دون الله! وفي كيان الرسل وآياتهم المعجزات إفراطاً كما في عيسى وعزير من بعضهم وتفريطاً كما في سائر المرسلين من آخرين، وقد يكون إفراط الإلحاد في آيات الله من حصائل

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٠.
(٢) سورة النحل، الآية: ١٠٣.

التفريط فيها وكثيرٌ ما هو، فمن أبصر إلى آيات الله مستقلات دون اعتبار بها تفريطاً فيها، فقد أفرط فيها أن يجعلها أنداداً لله تعالى، ومن أبصر بها بصرته لمعرفة هي أسمى فلا تفريط إذاً ولا إفراط، فإنهما من حصائل الإبصار إليها دون الإبصار بها وكما يروى عن الإمام علي عليه السلام في شأن الدنيا، «من أبصر بها بصرته ومن أبصر إليها أعمته».

ثم الإلحاد في كتابات الوحي منه لفظي كالتحريف بزيادة هي الإفراط أم نقيصة هي التفريط، وقد فعلوهما في التوراة والإنجيل، ولم يستثن عن الإلحاد فيه هكذا إلّا القرآن كما تستثنيه الآية التالية، ومنه معنوي يعمه حيث التحريفات المعنوية في القرآن سائرة في كل زمان ومكان.

هنا ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ تهديد لهم أوّل أنه عليهم رقيب عتيد، بجزائهم ﴿يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ﴾ ثم تهديد ثان نهياً شديداً بصيغة الأمر ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فقد بدأ التهديد ملفوفاً - يخيف ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ فهم مكشوفون لعلم الله، مأخوذون بما يلحدون في الله مهما غالطوا والتووا وحسبوا أنهم مفلتون من يد الله كما قد يتفلتون من حساب الناس!

وثم صراح التهديد ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ . . .﴾ وفي النهاية لفتة أخرى علّها أقوى منها ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ . . .﴾! أتراهم يغلبون آيات الله في هذه الإلحادات ولكيلا تبقى حجة بالغة على الناس؟ كلّا! مهما فعلوا ما افتعلوا، فإن الله يحافظ على آيته الأخيرة الخالدة «القرآن» تداوماً لحجة الله البالغة على الناس وتدليلاً على ما فعلوه في الزبر:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾:

١٥٩ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ﴾ الأخير، كل الذكر وهو القرآن العظيم، كفراً في مختلف دركات الإلحاد في آياته ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ وقد خيل إليهم أنه كسائر

الذكر، فبإمكانهم كل تحريف فيه وتجديف، ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ غالب على كل إلحاد فيه أياً كان ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ من أي مبطل ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ لأنه ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾!

أترى ما هو الخبر عن هذا المبتدأ؟ علّه محذوف مستفاد من ﴿يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ﴾ للذين يلحدون في آياتنا حيث الإلحاد في القرآن هو من أبرز مصاديقه وأحقها إلقاءً في النار، فـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ إلحاداً فيه ﴿يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ﴾ فإنهم كفروا به حال ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ . . .﴾.

ذكر عزيز، هو تنزيل من حكيم حميد، كيف يُغلب بمن يريد فيه إلحاداً، فلو تطرّق إليه التحريف بزيادة أو نقصان لقضي على الذكر في تاريخ الرسالات، ولكان ذكر الله مغلوباً لا يُنتصر له، ولم يكن الله حكيماً في تنزيله ولا حميداً، فإن في الحفاظ على الذكر الأخير حفاظاً على سائر الذكر، وفي تحريفه - وقد حرف قبله سائر الذكر - تحريف لشرعة الله ككلٍّ، وقضاء على حجة الله البالغة بأسرها.

إن في صيانة القرآن عن التحريف صيانة لسائر كتب السماء، وحجة بالغة دامغة على المتمسكين بها على تحرّفها عن جهات أشراعها، ودافع لهم إلى التفتيش عن شرعة غير محرفة يلجؤون إليها[١].

إنه «الذكر» الذي يحمل معه كل ذكر في كتابات السماء، فبحفظه تحفظ وبضياعه تُضاع ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[٢] تأكيدات تسع لا مثيل لها في سائر الذكر ولا أيٍّ من حقايق الدين الحق بأصوله وفروعه، ولأنه ضمان له بأصوله وفروعه.

﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ تأكيدان لعزة الكتاب كما الله منزِّله عزيز، عزيز من

(١) راجع كتابنا «المقارنات العلمية والكتابية بين الكتب السماوية».
(٢) سورة الحجر، الآية: ٩.